

المقالة الرابعة^١ فى الحز على التوبة

تعالوا يا أحبائى هلموا يا أبائى وإخوتى يا رعية الأب المنتخبة يا جند المسيح الموسومين تعالوا فاسمعوا قولاً يخص نفوسكم ، هلموا فلنتجر ما دام الموسم واقفاً ، تعالوا فلنجد حياة أبدية هلموا فلنتبع خلاص نفوسنا .

املئوا أعينكم دموعاً فى الحين تفتح أعين ذهنكم ؛ تعالوا كلنا أجمع الأغنياء والفقراء ؛ الرؤساء والمرؤوسين ؛ الشيوخ مع الشبان ؛ الأبناء والبنات ؛ وكل البنين المريرين أن يجوا من العذاب الخالد ويصيروا لملكوت السموات وارثين .

فلنتضرع مع داود النبى إلى الرب الرحم المتعطف على الناس قائلين :

" اكشف حجاب عيني فأتمل من ناموسك عجائب ؛ أنر عيني لئلا أتضع للوفاة " .
ولنتهتف كما هتف الأعمى : " يا ابن الإله ارحمنى " .

فإن منعنا قوم وانتهرونا لنصمت ؛ فلنصرخ نحوه أكثر ولا نضجر من الصراخ إلى أن يفتح يسوع المعطى النور أعين قلوبنا ، تقدموا إلى المسيح اقتربوا منه واستضيئوا فلا تخزى وجوهكم واتخذوا فكراً سديداً وشوقاً إلى الملك والفرديوس .

تُهاونوا بأمر هذا الدهر ؛ اجتهدوا فى هذه الساعة الحادية عشر ؛ حاضرُوا لئلا يغلِق الباب دونكم ؛ فقد قرب المساء الذى يأتى فيه المعطى الأجر بمجد جزيل ليعطى كل أحد نظير أعماله .
ولنتبن يا إخوتى ما دام لنا وقت ؛ فقد سمعتم ماذا يقول المسيح : " إن فرحاً يصير فى السماء بخاطى واحد يتوب " .

أيها الخاطى لم تتوانى لم تئس ؟ إن كان يصير فى السماء فرح إذا تبت فممن تخاف ؟ إن الملائكة يفرحون وأنت تتوانى ، رئيس الملائكة هو الكارز بالتوبة وأنت تهرب ، الثالوث الطاهر والذى لا يوسع والمسجود له يستدعيك وأنت تتنهت .

لا يحل لنا اهتمام العالم لئلا تمررنا النار الخالدة والدود الذى لا يرقد ، فلنكى ههنا قليلاً لئلا نبكى هناك إذا عُذبتنا بكاءً أبدياً ، احذروا ألا يتوانى أحدكم فإن ورود المسيح يصير بغتة كبرق خلب ؛ أما ترهبون ؟

إن فى تلك الساعة ينال كل أحد نظير أعماله ، كل أحد يحمل وسقه ، كل أحد يحصد ما زرع ، كلنا نقف عراة أمام عرش المسيح ، وكل واحد منا يعطى القاضى جواباً .

فى تلك الساعة لا يقدر أحداً أن يغيث أحداً ، لا الأخ أخاه ، ولا الوالدين أبنائهم ، ولا الأولاد آبائهم ، ولا الأصدقاء خلائهم ، ولا رجل قرينته ، لكن كل واحد يقف بخوف ورعب منتظراً أن يسمع القضية من الله .

فلم نضع فيما بعد ولا نستعد ؟ لماذا لا نهتم بحجج الاعتذار ما دام لنا وقت ؟ ولم نتهاون بالكتب المقدسة وبكلمات المسيح ؟ هل تظنون أن أقواله وأقوال القديسين لا تديننا فى ذلك اليوم بحضرة المقام المرهب إن لم نعمل ونحفظ كل ما أوصتنا .

قد سمعتم ماذا يقول الرب للتلاميذ : " من يسمع منكم يسمع منى ومن يخالفكم إياى يخالف ولأبى "

^١ كتاب: مقالات مار إفرام ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس فى بريا الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

وفى فصل آخر يقول أيضاً : " من يخالفنى ولا يسمع أقوالى أنا لا أدينه لكن له من يدينه القول الذى قلته ذاك يدينه فى اليوم الأخير " .
ترى أى قول مزعم أن يديننا فى ذلك اليوم الأخير ! هو إنجيله المقدس وباقى كتب الأنبياء والرسل المقدسة .

فلهذا اطلب إليكم يا إخوتى ألا تتهاونوا بالمكتوبات ، إن السماء والأرض تزولان وأما أقوال المسيح فلا تتغير .

هلموا يا إخوتى قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب ، فلنلقى أنفسنا فى لجة رافات الله فهو الإله ؛ فيتقدم ويأمر ويستدعينا كلنا قائلاً : " تعالوا إليّ يا كافة المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم " .

فالمحب للناس ، والمحتمل البشر يستدعى فى كل وقت الجميع . المتحنن والمتمهل الذى يريد أن جميع الناس يخلصون لم يأمر باستدعاء المختصين به فقط بل يستدعى الكل . " تعالوا إليّ كلكم " .
وإن كنت موسراً أو مقفراً فإن المقبل إليّ لا أخرجه خارجاً . من هو المقبل إليّ ؟ الذى عنده وصاياى ويقبلها ويحفظها ، الذى يسمع قولى ويؤمن بمن أرسلنى .

مغبوط من يسمع قوله ويحفظه ، وشقى من يخالفه ، فإن ذلك القول يدينه فى اليوم الأخير ، كما كتب مرهوب هو الوقوع فى يد الله الحى .

تب أيها الأخ ولا تجبن ، تب أيها الخاطئ واثقاً وناظراً إلى تعطف المسيح الذى لا يحصى القائل:
"ما جئت لأدعو صديقين فقط بل خطاة إلى التوبة " .

تب لئلا تخجل أمام المقام المرهب حيث تقف بخوف حيث ألوف وربوات ملائكة ورؤساء ملائكة حين تصير الأشياء المكتومة ظاهرة .

حين تفتح الكتب ، حين يفرز البعض من بعض كما يفرز الغنم عن الجداء ، بالحقيقة أنها ساعة مرهبة ومجزعة ، لأن الحاكم عادل مرهوب مذهل .

من ذا لا يخلف ! من لا يجزع من تلك الساعة ! لأن القاضى قوى الاقتدار ، ومجلس القضاء غير مستشفع ، وأعمالنا تكون منتصبة أمام أعيننا ، ونهر النار قبالة الموقف ، وتسيح الملائكة مع الصديقين بلا صمت ، ونحيب الخطاة غير محتمل ، والدموع غير نافعة ، حينئذ تفتح الكنوز والصديقون يتمتعون .

مغبوطون الذين عطشوا وجاعوا فإنهم هناك سيشبعون ، وويل للشباعى فإنهم هناك يجوعون ويعطشون ، والطوبى للذين افتقروا وبكوا فإنهم هناك يضحكون ويُعزّون .

وويل للذين يضحكون الآن فإنهم هناك ينوحون ويبكون بلا فتور ، والطوبى للذين رحموا فإنهم هناك سيرحمون ، والويل للذين لا رحمهم لهم .

لقد سمعتم كيف يطوب المجاهدين ؛ وكيف يعطى الويل للمتوانيين ؛ فإذ لنا مثل هذه كلها فلنحرص أن نخلص ، ولا نبصر إلى المتوانيين والمتنعمين فإنهم كالحشيش يجفون سريعاً .

لا نحب هذا الدهر فإنه يعرقل الذين يحبونه ، يطرب مقدار ساعة ويرسل الإنسان إلى ذات العذاب عارياً .

اسمع وأصغ إلى الكتب الإلهية ، فلا تتعرقل ولا تتخذع من هذا العالم الخبيث ، اسمع هذا يقول يوحنا المتكلم فى اللاهوت " لا تحبوا العالم ولا شيئاً مما فيه فإن سائر الأشياء التى فى العالم هى شهوة الجسد وشهوة العيون والعالم يعبر ومن يعمل مشيئة الله يبقى إلى الأبد " .

اسمع الرب يقول: "ماذا ينفع الإنسان إن ربح العالم كله وخسر نفسه" .

أصغ باهتمام إلى كلامه فإن القول الذى قال وعلم به ذاك يديننا فى اليوم الأخير ، أترى الرب كاذباً حاشاً لأنه هو الحق فإن كنت تعرف بمبالغه أنه هو الحق وأن أقواله غير كاذبة فلم تتوانى يا شقى ؟ ماذا تتوقع ؟ ماذا تفكر ؟ من يعتذر عنك ؟

أما عرفت أن كل أحد يعطى عن نفسه لله جواباً؟ أما عرفت أن كل أحد يحصد ما زرع؟ وكل أحد يحمل أثقاله؟

فاذ لك وقت فبدد ثقل خطاياك فإن الإله العطوف على الناس يستدعيك قائلاً: " تعالوا يا معشر الموقرين ". فاذا يأمر الكل بهذا فلا يبئس أحد ، ولا يجترئ أحد أن يقول: " أننى ما أخطأت " . فإن من يقول أننى ما أخطأت فذلك أعمى ومكفوف وأشقى كافة الناس لأن يوحنا الإنجيلي يقول: "إن قلنا أن لا خطيئة لنا نكذب ولا نعمل الحق ونخادع أنفسنا ونجعل الله كاذباً " . لأن ليس أحد نقياً من خطية.

فماذا إذاً ، إن الحاجة ماسة إلى الدموع لغسل خطايانا قائلين مرتلين مع داود النبي " اغسلني فأبيض أكثر من الثلج " . وأيضاً " أحم في كل ليلة سريري وأبل فراشي بعبراتي " . وذلك إنما أخطأ ليلة واحدة فبكى كل ليلة ، فلذلك أستوضح مغبوطاً لأن النبي سبق فأبصر بمبالغة القائل : الطوبى للذين ينوحون .

لا تشتتهى شيئاً من أشياء هذا العالم الزائل ، أبغض الثياب الناعمة والزينات والوشاء أمقت تلوينات الأصباغ ، التصفف ، التزين ، التبخر ، الأغاني الشيطانية ، والمعازف ، والصفارات ، وتصفيقات الأيدي ، والأصوات الغير مرتبة الوحشية .

أولاً تعلم يا شقى أن هذه كلها بذور الشيطان هذه كلها يعملها أمم العالم الذين لا رجاء خلاص لهم ، فلا نماتلن الأمم لنلا ندان معهم . قد سمعتم الرسول يقول : هذا أقوله واستشهد بالرب ألا تسلكوا أيضاً كما تسلك الأمم باغترار عقلم المظلم ذهنهم .

فاذ قد تركنا أعمال الأمم فلا نعود إلى الأشياء التي وراء أى التي قد سلفت ونعملها أيضاً ؛ قد جددت دفعة الشيطان وملائكته ووافقت المسيح بحضرة شهود كثيرين .

فانظر لمن قد وافقت وعاهدت ولا تستهون به ؛ واعرف هذا أن فى تلك الساعة كتب ملائكة أقوالك ومعاهداتك وخضوعك وخبأوها فى السموات إلى يوم الدينونة الرهيب .

فمن أجل هذا لا تخشى ولا تفرق إذ فى يوم الدينونة يُحضِر الملائكة كتاب الوثيقة التى عليك وكلمات فمك أمام المقام المرهب حيث يقف الملائكة مرتعدين ، وحينئذ تسمع الصوت المويّل : " أيها العبد الخبيث من فمك أدينك بالحقيقة " . أنك تتنهد حينئذ تنهداً مرأ ، وتبكى فى تلك الساعة ولن ينفكك شىء ارحم نفسك ولا تبغض مهجتك .

افتح عينيك وابصر كيف أن قوماً كثيرين يجاهدون ؛ كيف يحرصون أن يخلصوا ؛ كيف يكفون ذواتهم فى كل عمل صالح .

كيف يحفظون ذاتهم من الحسد ، من القرف ، من البغض ، من الضحك ، من الزنا ، من التنعم ، من الخصومة ؛ كيف قد احبوا الطريق الضيق صائمين ساهرين ملازمين الشقاء وباكين ، كيف قد أعدوا مصابيحهم بهية .

كيف يسبح فمهم كل حين ويمجد الختن الذى لا يموت وعيونهم متألمة جماله ونفوسهم مبتهجة . تأمل وانظر أنه قد قرب ولا يببئى ؛ لأنه يجىء ليفرح الذين يُحبونه ، يأتى ليعزى الذين ناحوا وبكوا لا على المائت ولا على خسران المال الوقتى بل من أجل الخطية السهل افتعالها ؛ ومن أجل الملكوت الذى لا نهاية له .

ومن أجل نعيم الفردوس المطرب الذى أخرجنا منه لما خالفنا وصية الله حيث يعود إليه أيضاً النائحون والباكون .

يجىء ليكلل الذين جاهدوا بمفترض الجهاد الذين احبوا الطريقة الضيقة الضاغطة ، يأتى ليرحم الرحومين .

يجيء ليظوب الذين تمسكنوا من أجله ، يأتي ليشبع الذين جاعوا من أجله وعطشوا من الخيرات ،
يجيء لينير مكتومات الظلمة ويظهر آراء القلوب .
ولم لا أقول قولاً وجيزاً يجيء ليعطى كل أحد نظير أعماله ، يجيء لا من الأرض كما جاء فى
المرّة الأولى لكن من السموات بقوة ومجد كثير .
حينئذ تُضرب الأبواق فتتزعزع قوات السماء ، وترتعد الأرض كلها كالبحر من قبل مجده ،
ويجرى أمامه نهر نار ينظف الأرض من المآثم .
حينئذ يصير بغتة صوت ها الختن يجئ ؛ ها السرور المنتظر يوافي ، وها فخر الصديقين ، شمس
العدل مقبل هل ملك الممتلكين وارد الذى لا انقضاء لملكه ، ها القاضى العادل آتى الآن اخرجوا
لاستقباله سريعاً .
وحينئذ يوافي الذين لهم مصابيح مضيئة وحلتهم منيرة فيسمعون صوت الختن قائلاً : " تعالوا يا
مباركى أبى رثوا الملك المعد لكم من قبل إنشاء العالم " .
فلما يصير هذا الصراخ مسموعاً من الكل يخرج إلى استقباله الذين لهم مصابيح مضيئة بهية بدالة
جزيلة مبتهجين واثقين أن مصابيحهم لا تنطفئ .
حينئذ إذا رأيت ذاتك فى غم عظيم ، فى خيبة رديئة وشدة غير محتملة ، وإذا عاينت مصباحك
انطفاً تقول بخزى وخجل : " يا إخوتى أقرضونى زيتاً قليلاً فقد انطفاً مصباحى " .
فيجيبونك قائلين : " لعله لا يكفيننا وإياك لكن أذهب إلى الذين يبيعون وأشتري لك " .
فتمضى بخزى وتوجع وتنهد مر باكياً فلا تجد ألبته زيتاً تشتريه لأنه قد أنحل موسم الحياة وكل
حياتهم ترتعد كالبحر .
قد انصرف الفقراء الجالسون حول أبواب الكنائس الذين يبيعون الزيت هناك ، فتضيق بك الأمور
من كل جهة وتتحير باكياً منتحباً قائلاً : أمضى أقرع باب المسيح لكن من يعرف إن كان يفتح لى .
فإذا جئت تفرع يجاوبك الختن من داخل : " حقاً أقول لك لست أعرفك أنصرف عنى يا عامل
الإثم ما رحمت فلا تُرحم ، ما سمعت صوت الفقراء ولا أنا اسمع صوتك .
كنت تسمع كئيبى المقدسة وتضحك ؛ فلهذا لا اسمح لك أن تدخل ، نبذت أوامر أنبيائى ورسلى ؛
فلهذا القول الذى قلته ذاك يدينك فى هذا اليوم الأخير انصرف عنى .
لم تقبل الباب الضيق ؛ خضبت بشرتك وقتلت نفسك ؛ وكيف تريد أن تدخل ههنا وتدنس مملكتى ؛
دنست بشرتك وأوعبت فمك قرفاً وسلباً وعملت مشينات الشيطان وطرحت مشيئتى ؛ وأبغضت
قريبك والآن تتضرع أن تدخل إلى حيث لم تُرسل شيئاً حيث ليس لك شيئاً موضوع .
لا دموع ، ولا بكاء ، ولا صوم ، ولا سهر ، ولا تسبيح ، ولا بتولية ، ولا صبر ، ولا صدقة ، ولا
شيئاً من هذه تقدمت وأرسلتها إلى هنا ، فماذا تطلب ؟
هذا مسكن إنما يسكنه الذين تمسكنوا من أجلى ، هذه المملكة للرحومين ، هذا الفرح للنائحين ، هذا
السرور للنادمين والتائبين ، هذه النياحة للصائمين والساهرين ، هذه الحياة لليتامى والأرامل .
ههنا يفرح الذين جاعوا وعطشوا فرحاً مؤبداً ، فأنت قد أخذت خيراتك فى حياتك أنصرف عنى
إلى النار الأبدية " .
هذه تسمعها واقفاً خازياً ؛ ومطرقاً إلى أسفل ؛ وفى حين وقوفك يأتي إلى أذنك صوت الفرح
والابتهاج وتعرف صوت كل واحد من رفقائك ، حينئذ تنتهد تنهداً مرّاً قائلاً :
" ويلي أنا الشقى كيف عدمت هذا المجد وتميزت عن رفقى ؛ كنت معهم طول أيام حياتى والآن
انفصلت عنهم ، بالحقيقة أصابنى هذا عن استحقاق .
كان أولئك يمسكون عن الأغذية وغيرها وأنا كنت أبادر إلى الأغذية والأعشبية ، كان أولئك
يرتلون وأنا صامت ، كان أولئك يصلون وأنا أنتزه ، كان أولئك يضعون ذاتهم وأنا أتكبر ، كان
أولئك يستهنون بذاتهم وأنا أتزين ، كانوا يكون وأنا أضحك .

فلهذا الآن أولئك يبتهجون وأنا أنتحب أولئك يسرون وأنا أبكى ، يملك أولئك مع المسيح إلى الدهور التي لا تنتهي وأنا أرسل مع معاند المسيح إلى النار الخالدة ، الويل لي أنا الشقي . ما هو الذي أنا أدخل به ؟ كم خيرات قد عدمتها لكي ما أعمل مشيئة الشيطان زمناً يسيراً .
الآن علمت أن كل أحد يأخذ نظير أعماله ، الآن علمت أن العالم غرر بي واعتقلني ، وها كم من خيرات عدمتها نفسي وكم شرور جلبتها علي ذاتي " .

هذه ونظائرها تقولها منتحياً لكنك لا تنتفع بها لأن هناك لا منفعة من التوبة والندامة .
فمن أجل هذا تُناشدنا وتُوصينا الكتب المقدسة كتب الرسل والأنبياء والقديسين أن الحظوظ الصالحة التي أعدها الله للذين أحبوها ما رأوها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على بال إنسان .
فقد سمعت أيضاً الرب يقول : لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد . وفي فصل آخر يقول أيضاً :
الطوبى للمطرودين من أجلي .

ولهذا يقول الرسول : لا تتخذوا فإن الله لا ينخدع ، الشيء الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد فمن يزرع في الجسد يحصد بلاءً ومن يزرع في الروح يحصد من الروح حياة خالدة ، لأن الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج .

أصغوا يا إختي وتذكروا المكتوب فقد قال: خرج الزارع ليزرع زرعه .
فمن هو الذي خرج وزرع ؟ هو ربنا يسوع المسيح سيد المنزل الخطير . ماذا زرع ؟ قول البشارة ، وصاياه المقدسة . أين زرعتها ؟ وفي أية أرض ؟ في قلوب الناس ، في كافة أفاصي الأرض . لكن الكل لم يسمعوا الإنجيل ، ولا كلهم يعملون فلاحات لكي ما وقع زرع الرب يعمل ثمرًا ؛ لكنهم في أرض بور ، وذات شوك وخديعة .

يقبلون قول الإنجيل ، وإذ هم متصرفون في أمور العالم وثورته ولذاته يختنقون ولا يعطون ثمرًا .
فأنتم يا أحبائي قوموا قلوبكم ومهدوها لقبول بشارة الإنجيل ، ولا يخنق قلوبكم اهتمام العالم الكثير ، فلنسعى من أجل الحاجة لا من أجل التمتع ، ولنرضى بالقوت الكافي .
إن لازمتم التمتع والاستكثار فسيكون تبعكم كثيراً وجريكم لا يقف أصلاً وغمكم لا ينتهي وعيشكم كثير الاهتمام .

يا إختي إن الحاجة إلى شيء واحد كما قال الرب ، وهذه الأشياء يجب أن نصنعها في جزء من همنا من أجل اضطرار الجسد ، وتلك الفضائل يجب أن نصنعها بلا فتور من أجل خلاص النفس لأن ليس شيء أعلى قدراً من النفس .

فمن أجلها يا إختي فلنحاضر ونهتم ونستعد كل يوم ولا نفن كل زماننا في الاهتمام بالجسد ، لكن إذا جاع الجسم وطلب طعاماً فتذكر أنت أن النفس أيضاً لها حاجتها .
وكما أن الجسد إن لم يستعمل خبزاً لا يستطيع أن يعيش كذلك النفس إن لم تتغذى بالحكمة الروحانية فهي مائتة ؛ لأن الإنسان مركب من نفس وجسد .
فلذلك قال المخلص : أنه ليس بالخبز يعيش الإنسان فقط .

فأنت إذا كقهرمان نجيب أعط النفس أغذية النفس وأمنح الجسد أغذية الجسد ؛ ولا تطعم جسديك وحده وتترك نفسك مقفرة مائتة بالجوع ، ولا تدع نفسك تموت لكن غذيها بالأقوال ، بالمزامير ، بالتسابيح ، بالترانيم الروحانية ، بقراءة الكتب الإلهية ، بالأصوام ، بالأسهار ، بالعيرات ، بالرجاء ، والدراسة في الخيرات المستأنفة . هذه ونظائرها هي طعام النفس وحياتها .
أحذروا يا إختي أن يوجد أحدكم غير مثمر ، من يزرع للجسد تمتع العالم ، تنعماً ؛ الأعشية والأغذية ؛ من جسده يحصد بكاءً .

ومن يزرع للروح صلاة ، وسهراً ، وصوماً من الروح يحصد حياةً أبديةً .
تأملوا وأبصروا إن المتعممين لا يمدحهم أحداً أصلاً ، ولا المتزهين ، ولا الضاحكين لأن هذه تصنعها الأمم .

أما الشريعة التى لنا فهى هذه : " مغبوطون المساكين بالروح ، الطوبى للنائحين ، الطوبى للرحومين ، الطوبى للمطرودين ، الطوبى للمعيرين ، الطوبى للأتقياء القلب ، الطوبى للمتمسكين بالحِمية .

الطوبى للذين حفظوا المعمودية طاهرة ، الطوبى للذين يزهدون فى هذا العالم من أجل المسيح ، مغبوظة أجسام البتولين ، الطوبى للذين لهم نساء وكان ليس لهم ، الطوبى للمتقطين والمصلين .
الطوبى للذين يقدمون نظرهم للوارد لبيدين الأحياء والأموات ، الطوبى للذين يكون فى صلواتهم "

هذه الفرائض المستقيمة هى أمانتهم الإلهية ، أى كتاب يطوب الذين يصفرون ، ويعزفون ، أو الذين يضحكون ، أو الذين يتنعمون ، أو السكيرين ، والمعربدين ، أو الذين يرقصون ، والمحبين للعالم .

هذه الأشياء التى فى العالم لم تأمرنا بها شريعتنا ، ولم تُشر إليها ؛ هذه لم يُعلم بها ربنا .
لكن يويل من يستعملها قائلاً :

الويل للضحكين الآن لأنهم سييكون وينوحون ، الويل للشباعى لأنهم سيجوعون ، الويل لكم أيها الأغنياء .

ويقول أيضاً النبى : الويل للذين يقولون إن الردىء جيد والجيد ردىء، والجاعلين النور ظلمة والظلمة نوراً ، الجاعلين الحلو مرراً والمر حلواً ، الويل للذين يذكون المنافق من أجل الهدايا وينتزعون حق الصديق .

الويل للذين يقومون بالعادة ويطلبون المسكر ويلبسون فيه إلى المساء فإن الخمر تحرقهم ، لأنهم بالمعازف والدفوف والصفارات يشربون النبيذ ، ولا يشاهدون أعمال الله ، ولا يتأملون صنائع يديه وهذه ونظائرها للمحبين العالم ؛ والناس الوادين للجسد لا المحبين للمسيح .

أتشاء أن تسمع أوصاف يسيرة من التى المحبين للمسيح ، والسالكين فى الطريق الضيق ، اسمع الرسول قائلاً : " فى كل شيء نُظهر ذواتنا كما يليق بخدام المسيح بصبر كثير ، بغموم ، بشدائد ، بضيقات ، بجرافات ، بحبوس ، باضطرابات ، بأتعاب ، بأسهار ؛ بأصوام ، وتوابعها " .
والرب يقول أيضاً : قوموا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة .

ماذا يجب أن نعمل يا إخوتى ؟ ها قد سمعتم كيف يطوب السالكين فى الطريق الضيق ، وكيف يويل للسائرين فى الطريق العريض الواسع المؤدى إلى الهلاك .

فلنتعب زماناً يسيراً لنملك إلى الأبد وليكن بإزاء أعيننا كل حين الوارد لبيدين الأحياء والأموات وننذكر دائماً الحياة الخالدة ، والملكوت الذى لا موت فيه ، والتصرف مع الملائكة ، والعيشة مع المسيح .

فلنتذكر أن ليس فى العالم شىء سوى دموع ، وتعبيراً ، ومثالب ، وتوان ، وأتعاب ، وأمراض ، وشيخوخة ، وخطايا ، وموت .

فلا تحب العالم ، أحذر لئلا يطربك العالم ، ويعرقلك ، ويرسلك عارياً إلى ذلك الدهر ، تذكر القائل : صلوا بلا فتور .

لا تسر بزهوة العالم ، ليكن المزمور كل وقت فى فمك فإن الرب نفسه يعظ به ، ويعزى نفوسنا ، ومهما أجتزناه وهفونا به ما دام لنا أوان التوبة فلنداوه بالعبرات .

وقت التوبة قليل وملكوت السموات لا نهاية له ، ونحن نطوب القديسين ونتوق إلى إكليلهم ، ولا نشاء أن نشابه جهادهم .

هل تظنون أنهم كُلبوا بغير أتعاب وأحزان كما نشاء نحن ! أتشاء أن تسمع أى نياحة كانت للقديسين فى هذا العالم ، بعضهم ضُربت أعناقهم ، آخرون ذاقوا تجربة استهزاء ، وسياط ، وقيود ، وحبوس .

رجموا ، ونشروا ، وماتوا بقتل السيف ، طافوا بجلود غنم ، و بجلود المعزى ، معوزين ، مغمومين ، مذلين ، قوم لم يستحقهم العالم ، تائهين فى البرارى ، والجبال ، والمغائر ، ومثاقب الأرض .

ها قد سمعتم جزءاً من كثير من نعم القديسين ونياحهم فى هذا العالم وكأنهم فى سرور احتملوا جميع هذه ونظائرها إذ كانوا يقدمون نظرهم إلى الخيرات المحفوظة فى السموات التى لم تراها عين ولم تسمع بها أذن ولم تختز على قلب إنسان التى أعدها الله للذين يحبونه .

إن أخذت اسم الله تطرد الشياطين، تحرك يدك للعمل ليرتل لسانك، ويصلى عقلك إن شئت أن تنجو من العذاب ، لا تعرف أحداً قط ، الويل لمن لا شريعة له لأنه إذا استضاء الكل يُظلم هو ، الويل للمفتري فإن لسانه سيعقد ، فكيف يعتذر لدى الحاكم لا يستطيع ذلك .

الويل للمتكبر فإن ثروته تُهرب والنار تقبله ، الويل للوانى فإنه سيطلب الزمان الذى أضاعه بؤساً وإذا طلبه لا يجده ، الويل لمحِب الزنا فإنه قد وسخ الحلة العروسية ، وسيخرج بخزى من العرس الملكى .

الويل للثلاب ومعه المستكبر فإنهما سيرتبان مع القتلة ويعذبان مع الزناة، الويل لمن يتنعم زماناً قليلاً فإنه سيطلب كالخروف للذبح ، الويل للمرائى فإن الراعى يجده والذئب يخطفه .

الطوبى لمن سلك الطريقة الضيقة ؛ فإنه سيدخل إلى السماء لابس الإكليل ، الطوبى لمن سيرته عالية وعقله متضع فإنه تشبه بالمسيح فسيجلس معه ، مغبوط من قد صنع بالفقراء إحساناً كبيراً فإنه إذا حوكم سيجد كثيرين ينتصرون له ، الطوبى لمن يكلف ذاته فى كل شىء فإن المقتسرين يخطفون ملكوت السموات .

فلنكلف ذاتنا يا أحبائى فى كل عمل صالح ؛ ولنعز ذاتنا ولنعضها ؛ لينير الواحد نفس الآخر كما أنكم تعملون ذلك فى كل وقت .

ولكن حديثنا عن الدينونة وعن اعتذارنا إن كنتم تعملون عملاً ، أو كنتم تسلكون ، أو على الغذاء، أو على مضاجعكم ، أو فى عمل آخر اهتموا فى كل وقت من أجل الدينونة وبإتيان الحاكم العادل .

وتذكروا فى قلوبكم هذا ، وليقل بعضكم لبعض . ترى كيف تلك الظلمة البرانية ؟ ترى كيف هى النار التى لا تطفأ ، والدود الذى لا يرقد ؟ ترى كيف هو صرير الأسنان ؟ .

" هذه فليخاطب بها بعضكم بعضاً كل حين ليلاً ونهاراً " .

وأين يجرى النهر النارى ، وينظف الأرض من آثامها ؟ كيف تدرج السماء كالدرج ؟ وكيف تنتشر النجوم كورق التينة ؟ كيف تبنى الشمس والقمر ؟ كيف تنشق السموات بأمر السيد ؟ كيف يبرز القاضى من السماء وينحدر ؟ كيف تضطرب قوات السموات وتحاضر ؟ كيف يستعد العرس الرهيب ؟ كيف ينزل القرار منتظراً وطى القاضى عليه ؟

كيف تتكاثر أصوات الأبواق ؟ كيف تنفتح القبور ؟ كيف تنقض الأجداث ؟ كيف ينهض الراقدون منذ الدهر كمن يقوم من نوم ؟

كيف تتحاضر النفوس إلى الأبدان ؟ كيف يتبادر القديسون إلى الاستقبال ؟ كيف يؤهل المستعدون إلى الدخول ؟ كيف تغلق دون المتوانيين .

هذه إذا درست تفيد عادة حسنة ، هذه إذا أهتم بها ليلاً ونهاراً تقنى أمراً نفيساً لأن من يتذكر الموت دائماً لا يخطئ كثيراً .

لا نحاضر طول حياتنا من أجل البطن ، ومن أجل الملابس فهذه إنما يصنعها الأمم الذين ليس لهم أمل فى الحياة الأبدية . فلا نمائلهم بل نسمع الرب يقول : اطلبوا أولاً ملكوت السموات وبره وهذه كلها تزداد لكم .

فلنطلب يا إخوتى ذلك الملكوت الذى لا نهاية له ، ولا انقضاء ؛ فانطلب ذلك الفرحة المؤدى إلى الدهور التى لا تنتهى ، لنبتهل يا أحبائى بوجع قلب ، وبدموع ، وتنهى ، ألا نخيب من سماع ذلك الصوت المغبوط ولنمتنع من التمتع هنا لنستفيد هناك فرحة الفردوس ونعيمه ، ولنبتك هنا قليلاً لنضحك هناك ، ولننجم لنشبع هناك ، ولنندخل من الباب الضيق والطريق الصعب لننخطر هناك فى الطريق العريض الواسع .

وأقول أيضاً : احذروا أن يعرقلكم العالم ويلعب بكم ويرسلكم إلى ذلك الدهر عراه أشقياء فإنه قد عرقل كثيرين ولعب بكثيرين ، وكثيرون أعمتهم خديعة هذا العالم فنحن يا إخوتى فلنصغ إلى ذاتنا ولنسمع الرب قائلاً : " تعالوا ورائى " . فلنترك كل شيء ونتبعه وحده ولننبتذ كل فرحة هذا العالم فإنه سيخزى كل من يحبه فلنسرع نحن أن نتخذ الحياة الأبدية ومجاورة الملائكة والتصرف مع المسيح . فإن له المجد والافتدار مع الأب والابن والروح القدس إلى أبد الدهور . آمين .